

محاولة دراسة الاتصال في المجتمع الجزائري: بعض المشاغل
الابستمولوجية في البيئة الرقمية

**An Essay to study communication in Algerian society:
Some epistemological concerns in the digital environment**

أ.د نصر الدين لعياضي / جامعة الجزائر 3

Pr. Nacer-Eddine Layadi/ University of Algiers 3

alayadi2014@outlook.com

تاريخ القبول: 2022/06/28

تاريخ الاستلام: 2022/06/28

ملخص:

في ظل تعددية مقاربات دراسة الاتصال المدياتيكي، وانطلاقا من افتراض أن السياق السوسيو ثقافي -بكل ما يحمله من رهانات وتحولات- الذي يفرض على الدارسين النظر إلى الفعل التواصل من زوايا مختلفة، يسعى هذا البحث من خلال تبني مقاربي التحليل النسقي والممارسات الاجتماعية طرح جملة من الإشكالات المرتبطة بدراسة فعل التواصل الوسيط في المجتمع الجزائري بكل ما يحمله من دلالات ومفارقات.

الكلمات المفتاحية: الاتصال، الاتصال الوسيط، البيئة الرقمية، الإكراه المزدوج، الممارسات الاجتماعية.***

Abstract

In light of the plurality of approaches to the study of media communication,, and starting from the assumption that the sociocultural context -with all its challenges and transformations- that imposes multiple angles to look at the act of communicating, this research seeks, by adopting the approaches of systematic analysis and social practices, to pose a series of problems related to mediated communication in Algerian society with all its connotations and paradoxes.

Keywords: Communication, Mediated Communication- digital environment- double bind , Social practices.

مقدمة:

يبدو الموضوع الذي تقترحه هذه الدراسة عسيرا من أول وهلة لأنه يطرح السؤال التالي: كيف ندرس الاتصال أولا، والميدياتي، ثانيا. وفي المجتمع الجزائري ثالثا؟ إنه موضوع شاسع يستعصي على الاختزال والتبسيط، خاصة إن انطلقنا من تصور مفاده "إنّ الاتصال يتموضع في نهاية المطاف داخل مجتمع معين، ويُنفذ بأدوات مجتمعية معينة"¹، وأن تحولات المجتمع الجزائري لازالت قيد المساءلة والبحث.

لتذليل صعوبة هذا الموضوع، تسلحنا بما يلي:

تبني مقاربتين، تبدوان متعارضتين لكنهما متكاملتان. فالبحوث الحديثة تتفق على تعددية المقاربات لدراسة الميديا الاجتماعية.² وهاتان المقاربتان هما:

1- المقاربة النسقية، : Approche systemique يؤكد الباحث³ Jean-Pierre

Olivier de Sardan على أن العلوم الاجتماعية قدمت طبعتين للمقاربة النسقية. الطبعة الأولى ذات السقف الأعلى تنطلق من تصور ينصّ على أن الواقع عبارة عن نظام أو منظومة، والطبعة الثانية ذات المستوى الأدنى، تنصّ على أن كل شيء يجري وكأنّ الواقع عبارة عن نظام، غير أنه يعتقد أن الممارسات الاجتماعية والدلالات الثقافية ليست عبارة عن منظومة وفق ما تؤكد الطبعتان. فاستراتيجيات الفاعلين والسلوكيات، التي تتسم بالمفارقة وغموض التمثلات، أبعد من أن تشكل منظومة في انسجامها وسيرها الوظيفي. لذا، إنّنا نستعمل المقاربة النسقية بالمعنى المجازي الذي يحيل إلى عدم الفصل بين الحياة اليومية العينية والحياة الافتراضية. فلا يعتبر العالم الافتراضي عالما خيالياً أو غير واقعي مواز للعالم العيني اليومي، بل نعتبرهما عالماً واحداً. فالاتصال الفيزيائي وجها لوجها

يؤثر على الاتصال الوسيط، والاتصال الوسيط يؤثر بدوره على الاتصال المباشر الثنائي وبين الجماعات.

2- مقارنة الممارسات الاجتماعية. تعتبر هذه المقاربة حديثة، إذ ظهرت في مطلع الألفية الحالية على يد الباحثين الاجتماعيين: بيار بورديو، وأنطوني غدنز، وبرينو لاتور، والتي تنطلق من فهم هذه الممارسات على أنها:

(أ) جملة من الأفعال والأقوال ؛ (ب) التي ترتبط منطقياً ببعضها البعض بحيث تشكل كتلة من الأنشطة ؛ (ج) من خلال ما يسمى بأشكال مختلفة من الاتفاقيات أو القواعد أو الاستراتيجيات ؛ (د) وتمتد في الوقت ، مما يعني أن الممارسات تستمر كمجموعات يمكن التعرف عليها من الإجراءات⁴ .

إن الحضور الطاعي لعدّة التواصل في كل مكان وزمان جعلها، ويا للمفارقة، أقلّ مروّنة، أي أنها اندست في الحياة اليوميّة والممارسة الاجتماعيّة. فلم تعد منفصلة عنا ولا نعيش معها فحسب، بل أصبحنا في داخلها⁵. وترجمة هذا القول في مجال البحث، يعني عدم الاكتفاء بالنظرة الضيقة لعلاقة المتصل- المستخدم- بالميديا، بل إدراجها في السياق الرحب الذي تجري فيه؛ أي الاهتمام بفعل التواصل الوسيط ضمن الممارسة الاجتماعيّة ككل.

3- الابتعاد عن اليقين والنّأي عن الإجابة الحاسمة في غياب البحوث الأمبريقية التي يتأسس عليها الجواب أو ندرتها ، والتي ترصد تداعيات الاتصال المباشر- وجهًا لوجه - في المجتمع الجزائري على انتقاله عبر الوسائط التقنيّة وتأثير هذه الأخيرة على الممارسة الاجتماعيّة.

لذا حاولنا أن نبني دراستنا هذه على السؤال الذي يعبر عن عدم اليقين. وطرح السؤال مثلما يؤكد الباحثان: ليونال بيلوجر، وماري جوزي كوشير: هو فعل سخيّ وشجاع في آن واحد: سخي لأن السائل يروم اقتسام ما يعرفه مع الغير. وشجاع لأنه يكشف عن حدود السائل المعرفية، أي جهله⁶

إن دراسة الاتصال في أي مجتمع يتطلب أولاً تعريفه. والقيام بهذه المهمة تواجهه المفارقة التالية:

على الرغم من أن كل المراجع تؤكد على أصل كلمة - Communication - communicare لاتيني وتعني الاقتسام، وأن تكون على علاقة ما مع " ، وتحيل إلى أن أبرز اللغات اللاتينية اشتقتها من عبارتي " Commun " المشترك ، و " Communauté " ، أي الجماعة " إلا أن منظري الاتصال انزاحوا عن هذا المعنى في تركيزهم على مكانة الاتصال الانطولوجية واعتبروه مساراً يتم بموجبه نقل رسالة (معلومة، فكرة، أحاسيس ومشاعر) من مرسل إلى متلقي عبر حامل أو قناة. وبفعل العديد من العوامل: الاقتصادية، والسياسية، والنفسية، تكاثرت النماذج التي ترسم مسار هذا الاتصال وفق اتجاه خطي. وحددت رهاناته.

يكمن نجاح الاتصال لدى شانون وويفر في الحفاظ على المحتوى المنقول بحيث لا يفقد أي شيء عبر مساره بمعنى أن تظلّ الرسالة المستلمة هي ذاتها المرسلّة. ويشخصان العدو الأساسي للاتصال في عدم التيقن من المحتوى؛ أي الانتروبي Entropie ، الذي يجب محاربته⁷. ولم يحد لازويل عن هذا النموذج الخطي للاتصال، إذا قام بمحاكاته مفككاً إياه إلى العناصر التالية: من؟ يقول ماذا؟ لمن؟ وبأي وسيلة؟ ومن أجل أي تأثير؟ ورأى أن رهان الاتصال يكمن في القدرة على التأثير.

لم تختزل هذه النماذج، وغيرها الاتصال في جانبه الإجرائي فقط، بل سجنته أيضا في العقل الأداتي، وعمّمته على الاتصال المباشر وجها لوجه⁸.

لم تطعن التكنولوجيا الرقمية في نماذج الاتصال الخطية والاختزالية فحسب، بل بعثت النقاش من جديد حول ماهية الاتصال انطلاقا من ارث آباء علم الاجتماع الذين يؤكدون على أن الاتصال مسار رمزي ينتج بموجبه الواقع، يحافظ عليه، ويصلحه، ويحوّله⁹. إنّه تعريف بسيط للاتصال، أليس كذلك؟ لكن فهم ممارسته في البيئة الرقمية يكشف عن صعوبات جمة، بعضها يعود إلى ديناميكية التحول الاجتماعي والثقافية الفاعلة في العملة الاتصالية، وبعضها الآخر يعود إلى تمثّل الوسيط التقني الذي من خلاله يتجلى الاتصال. وعن هذا التمثّل يمكن ذكر اتجاهين أساسيين، وهما: "زهابيو التكنولوجيا" الذين يخشون على البشرية من مآل التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي. ففيليب بروتون، على سبيل المثال، يرى أن التكنولوجيا الحديثة ستجرد البشرية من إنسانيتها وستقضي على الاتصال بين الأشخاص¹⁰. و"المتفائلون بالتكنولوجيا" الذين يصفهم الصحافي الأمريكي ستفن ليفي Steven Levy بالتقنو-متفائلين، لاحترافهم المفرط بالتكنولوجيا الحديثة التي يرونها مرادفا للتقدم الذي يولد الإنسان الجديد، والمجتمع الشامل والأخوي. والتي تجعل العلم في متناول الجميع بكبسة زر¹¹. إنها الترياق الذي يعالج البشرية من أمراض اتصالها: فالكلّ يتصل بالكلّ، والجميع يعرف الجميع.

حقيقة، لقد أصبحنا نتواصل بطريقة سمعية وبصرية وبأسرع ممّا كان عليه اتصالنا، حيث نتواصل مع أبعد نقطة في الكون حتّى مع رواد الفضاء، وبأقل تكلفة

تقريباً. لكن هل سمحت هذه المنجزات بالقضاء على كلّ عوائق الاتصال غير التقنية، وأصبحنا فعلاً أكثر قرباً من بعضنا، وأكثر تفاهماً وتعاوناً؟
الإجابة بالطبع لا، لأن ممارسة الاتصال ليست بالسهولة التي يصورها الاتجاهان المذكوران أعلاه، بل إنّها أصعب من ممارسة الإعلام. فصعوبة الإعلام، الذي ينشد الحقيقة، تكمن في صياغة الرسالة المناسبة، أما صعوبة الاتصال، الذي ينشد إقامة علاقة، فإنها تكمن في تعقد الآخر في نظر ولتن دومنيك¹². ويوضح هذه الصعوبة بالقول " إن الاتصال الذي ظلّ لمدة طويلة بمثابة عامل انفتاح وتقارب بين الأفكار والشعوب، يمكن أن يصبح سبباً للعداوة، وحتى الكراهية. ففي العالم الذي يتنقل فيه كل شيء بسرعة، يُسلط فيه الضوء على الاختلافات. إن تحمّل الآخر، عندما يكون قريباً ومرئياً، يصبح أكثر صعوبة من تحمّل ذاك الذي يكون بعيداً وغير مرئي¹³.

إذاً، إن دراسة الاتصال، هي تحليل لممارسة معقدة مفتوحة على التأويل، تخضع لمنطق العُدّة التقنيّة، بهذا القدر أو ذاك، وللعلاقة الاجتماعية، وتتجسد ضمن سياق ممارسة السلطة والاعتراف، وضمن تقاليد ثقافية موروثة. فلا وجود للاتصال دون وساطة، سواء كانت اجتماعية أو تقنية تدفعنا إلى مساءلته ليس انطلاقاً من محتوى ما يتم تداوله فحسب، بل من منظور كيفية تداوله وتلقيه وتأويله أيضاً.

سنحاول دراسة هذه الممارسة في المجتمع الجزائري وانتقالها من الحالة الثنائية الخاصة إلى الحالة الجماعية، ومن التأثير المبادل بين وضع الاتصال وجهها لوجه والاتصال الوسيط وفق المحاور التالية، وهي: 1- الكينونة والمظهر، 2- بعث الإحماض في البيئة الرقمية، 3- الاتصال الافتراضي في غياب التراتبية الاجتماعية، 4

-التعويض عن انمحاء المكان في الاتصال الافتراضي، 5- تداعيات "الإيموجي" في اتصال الجزائريين؛ 6- الاتصال بين التضمين والتصريح، 7- الاتصال من أجل الانغلاق، 8- الاتصال والإكراه المزدوج، 9- مواقع التواصل الاجتماعي وتحولات خصوصية الجزائري، 10- المجتمع الجزائري وأيديولوجيا الاتصال.

1- الكينونة والمظهر L'être et le paraître :

قد نتفق مع الفيلسوف ميشال سير Michel Serres¹⁴ في قوله إنّ شبكة الانترنت تشكل القطيعة الانترولوجية الثالثة في تاريخ البشرية، بعد اختراع الكتابة، ثم المطبعة، بيد أننا نرى حدود هذه القطيعة قد تختلف من مجتمع إلى آخر، ناهيك عن تداعيات القطيعة الأولى والثانية على الثالثة. فهل يمكن أن نرسم حدود هذه القطيعة الأخيرة في المجتمع الجزائري؟

في بداية انتشار جائحة كوفيد 19، شرعت العديد من الجمعيات الخيرية في القيام بنشاط تحسيسي للوقاية والتضامن: توزيع اللّثم والمطهر على المواطنين. وعندما سئل مسؤول على إحدى الجمعيات النشيطة في مدينة البليدة: لماذا لم تطلق حملتهم من الأحياء السكنية الفقيرة التي تحتاج فعلا إلى المساعدة والتضامن، أجاب، بأنهم اختاروا الأحياء الراقية في وسط المدينة لأنها مغطاة بشبكة الانترنت، وسرعة تدفقها عالية! أي أنهم سعوا إلى توسيع مروؤية نشاطهم، وكأن الغاية من هذا النشاط هو إظهار ما يقومون به. بصرف النظر عن البعد غير الأخلاقي الذي يفصح مثل هذه الأنشطة الخيرية، تلفت هذه الحادثة النظر إلى انتهاء

صلاحية مقولة " تحدث لأراك " التي نسبت إلى سقراط، وحلت محلها " اظْهَرُ لأسمعك " في بيئة الواب.

إن معنى هذه الحادثة غير مستحدث في جوهره لأن الجزائريين دأبوا على إخفاء كينونتهم في الواقع، ليقدموا صورة أمام الملاءم مختلفة أو حتى مغايرة على ما هم عليه. يمكن أن نلاحظ هذا الأمر في المعيش اليومي. نجد الأسرة الجزائرية مكدسة في غرفة المعيشة وقد تنام فيها حتى يظل الصالون نظيفا ومرتباً لاستقبال الضيوف الذين يأتون لمأما حتى يأخذوا انطبعا جيدا عن وضعها، وربما لا يأتون إلا نادرا.

على الرغم من سلبية التعميم، نجازف بالقول إن الجزائري يسعى إلى تحقيق ذاته عبر اللغة سواء في الواقع الفيزيائي الملموس أو في الفضاء الافتراضي بشكل يطغى فيه المظهر *Le paraître* على الكينونة *L'être*. فلا غرو إن قال بعضهم: تكاد تغادر شقتك يوم الجمعة دون أن تغلق بابها نظرا لما يغمر صفحات الفيسبوك من إيمان واستقامة وأمن نتيجة الإفراط اللفظي والمرئي في التمسك بتعاليم الإسلام، بل لا غرابة إن وجدنا سيدة جزائرية تتحدث عن منشورات زوجها في مواقع الشبكات الاجتماعية قائلة: عندما أتابع ما ينشر في موقع الفيسبوك أتمنى أن أكون زوجته!

ومن باب التوضيح أكثر يمكن القول إن الأنا المرئية في شاشة مواقع الشبكات الاجتماعية تعدّ مكونا مركبا من ثلاث أنات حسب الباحثة فاني جورج¹⁵: الهوية التصريحية *l'identité déclarative* (تمثل الذات)، والهوية الفاعلة *l'identité agissante*، والهوية المحسوبة *identité calculée*. ونزعم أن الاتصال عبر مواقع الشبكات الاجتماعية في البيئة الجزائرية، يمزج بين الهويةتين التصريحية والمحسوبة

التي يقول عنها عبد السلام بنعبد العالي الفيلسوف المغربي¹⁶ أن ما نعرضه اليوم على مرأى ومسمع الآخرين ليس حياتنا بل صور مصطنعة ومفبركة وإخراج يتلون حسب الحاجيات الظرفية. وهذا ما يوسع الهوة بين ما نحن عليه وما نضعه تحت نظر الغير.

نقف عند هذا الحد حتى لا نمضي إلى ما ذهب إليه هشام شرابي¹⁷ في مذكراته عندما تساءل قائلا: كيف للفرد في مجتمعنا أن يعرف ذاته على حقيقتها وهو منذ الصغر محاط بأفراد لا يعرفون ذواتهم، يعيشون في عالم يقوم على الكذب، وخداع النفس والآخرين؟ كل من عرفت من أبناء مجتمعي يود، بشكل أو آخر، أن يكون إنسانا آخر. يتظاهر أنه غير الشخص الذي إيّاه.

2- بعث الإحماض¹⁸ في البيئة الرقمية:

يروى محمد عابد الجابري¹⁹ عن سكان مدينة فجيج، مسقط رأسه، التي لا تبعد كثيرا عن الحدود الجزائرية. إذ يقول إنهم كانوا يتسلون بالكلام، يتقبلون تكرار الكلام في الموضوع ذاته ويعيدون حكاية نفس الخبر مرات ومرات وكثيرا ما كانوا يتلذذون بالاستماع إلى الشخص نفسه يعيد ما حكاها بالأمس أو قبله متسامحين فيما يأتيه من زيادة أو نقصان. فالخبر لم يكن من أجل ما ينقله من معلومات للسامع، بل من أجل تسجية الوقت. وهذا ما يقوم به الكثير من الجزائريين في المقاهي وأماكن العمل والدراسة، وما تمارسه النساء في صالونات الحلاقة وفي الأعراس، إذا، ما يحدث اليوم في مجتمعنا هو التعايش بين الإحماضين: الإحماض " السابق " والإحماض الرقي، فكلاهما يتغذى من الآخر، الاختلاف الوحيد يكمن في مروية الإحماض الرقي، واتساع رقعته مع بعض الإقصاءات الناجمة عن ضعف

الإمكانيات المادية لامتلاك العدة التقنية والاشتراك في الانترنت، وعدم الكفاية التقنية التي تسمح بالمشاركة فيه.

تكون الحكاية في الغالب مادة للإحماض التي تخلق وشائج عاطفية وتقرب بين الناس. وغني عن القول أنها تختلف عن الحجج والأدلة. فالحكاية يروها الأفراد كما عاشوها أو ينقلونها كما سمعوها وهي غير قابلة للتعميم، بينما الحجج هي نتيجة مجموعة من الملاحظات والتجارب التي تسمح بالتأكيد أو التفسير الأكثر عمومية .²⁰ ويميل الاحماض الرقمي إلى الحكاية أكثر من الحجج، من يجعل الاتصال أكثر عاطفية وذاتية في التفاعل الإنساني، لكنه غير كاف لتشكيل فضاء عمومي مستنير.

3- مآل الاتصال الافتراضي في غياب التراتبية :

قبل ميلاد الانترنت كان الاتصال يستند إلى نوع من التراتبية التي تضفي مصداقية على الاتصال وتزيد في فاعليته، وتختلف هذه التراتبية من مجتمع إلى آخر. ففي بعض المجتمعات يكون حديث من يملك المهارات التقنية والفنية مسموعا ومقدرا أكثر من المتقدم في السن، وبعضها الآخر يمنح مصداقية أكبر لحديث من يملك الشهادات العلمية : دكتور، مهندس، طبيب، وللثري الذي يملك المال في بعض المجتمعات، بينما في المجتمعات الشفوية، مثل المجتمع الجزائري يحظى كبير السن بأهمية ويثمن كلامه الذي يدل على الحكمة والخبرة، لذا يقال: إذا مات شيخ طاعن في السن في أفريقيا زالت معه مكتبة. تراجعت هذه الترابية تدريجيا لتختفي في شبكة الانترنت. فيتساوى الجميع المختفي وراء العدة التكنولوجية. هذا ما أكدته Peter Steiner في رسمه الكاريكاتوري، الذي نشره في صحيفة نيويورك، يوم 5 جويلية 1993، والذي يظهر فيه كلبا خلف شاشة الكمبيوتر مع التعليق التالي: في شبكة الانترنت لا أحد يدري أنك كلب. فاختفاء التراتبية لا يعني اختلاط الحابل

بالنابل فحسب، بل تعني أيضا زوال مراسيم اللباقة والكياسة والاحترام، والتي تعمل على تليين الاتصال وتعزيز بعده الإنساني.

4-الاتصال بين التضمين والتصريح :

يفرق المختصون في الاتصال ما بين الثقافات بين نمطين من الاتصال: الصريح والضمي، فيصنفون اتصال البريطانيين، على سبيل المثال بالصريح، واتصال الأمريكيين بالضمي، وهذا ما عبر عنه الكاتب الساخر جورج برنارد شو بقوله: "إن بريطانيا والولايات المتحدة بلدان تفصلهما اللغة." ²¹ فمفردات الاتصال الصريح تفهم حرفيًا، بينما الاتصال الضمني تأويلي، والقصد الفعلي منه لا تفصح عنه الكلمات والصور المتداولة، بل يستنتج مما بين السطور، ومن السياق والايحاء والتلميح. فالشعوب تستعمل الاتصال الضمني لأسباب تاريخية وثقافية ونفسية، من باب المجاملة وعدم الاحراج، وعلى سبيل المزاح، ولتفاديا للصدام، لكن يمكن أن يؤدي هذا الضرب من الاتصال إلى توترات ونزاعات إن جرى تأويله بشكل مريب. يوصف الاتصال في المجتمع الجزائري بأنه ضمني لأسباب يطول شرحها. والسؤال المطروح، هل أنه يتحول في ظل تطور العدة التقنية إلى اتصال صريح، بعد أن أصبح مستخدمو شبكة الانترنت أكثر جرأة نتيجة اختبايم وراء الشاشة بأسماء مستعارة وهويات مزيفة، وتحرروا من التراتبية في الاتصال؛ أي فهل الاتصال بين الجزائريين في البيئة الرقمية يقضى على طابعه التضميني ؟ وهل ينتقل الى الممارسات الاجتماعية الفعلية في الحياة اليومية. من المحتمل أن تكون العدة التقنية عاملا معجلا وليس سببا في ابتعاد الجزائريين عن الاتصال الضمني. والسؤال المطروح ألا يشكل هذا الابتعاد مادة لاتساع " الدُّعُر الأخلاقي"؟

5- هل من تعويض عن انحاء المكان في الاتصال الافتراضي؟

إن الحديث عن الاتصال يكون قاصرا دون الأخذ بعين الاعتبار الحيز والمسافات. ولا يكتمل فهم الاتصال غير اللفظي إن تجاهلنا "القربيات" proxémique- Proxemics التي بلورها عالم الانثروبولوجيا الأمريكي "إيدوارد هال" منذ 1963، حيث أكد انه بالإمكان استنتاج طبيعة العلاقة بين متحدثين وجها لوجه من خلال المسافة التي تفصلهما. وحصرها في المستويات الثلاثة التالية: المسافة الحميمية، والشخصية، والاجتماعية، والعامة.²² ودلالة هذه المسافة تختلف حسب طبيعة الشعوب وثقافتها.

تساءل بعض الباحثين عن دلالة مفهوم القربيات في الدردشة الالكترونية.²³ ونتساءل من جهتنا عن دلالة الاتصال في ظل غياب "القربيات" الفيزيائية في الاتصال الافتراضي؟ وهل استطاع الجزائري أن يعوض هذا الغياب باللغة اللفظية في اتصاله الوسيط؟ إن مشروعية هاذين التساؤلين تنبع من اعتقادنا بأن مسافات الاتصال غير اللفظي التي ضبطها "هول" لا تنطبق على المجتمع الجزائري الذي يبدو فيه انعدام الفاصل بين هامش الاتصال الشخصي والاجتماعي، وأن المسافة الحميمية غير ثابتة في مجتمع يتحكم فيه الوجدان والعاطفة.²⁴ بمعنى آخر هل استطاع الاتصال في الجزائر وفي البيئة الرقمية أن يكسب في الجانب اللفظي ما فقدته في الجانب غير اللفظي، أي في ظل غياب القربيات الفيزيائية؟ إن الاجابة عن هذا السؤال لا تكتمل إلا من خلال تحليل لساني للرسائل المتبادلة بين المتصلين في هذه البيئة. في انتظار ذلك يمكن المغامرة بتقديم مجموعة من المؤشرات التي قادتنا إليها ملاحظتنا الأولية، وهي كالتالي:

يلاحظ أن هناك صعوبة نفسية وثقافية في تحويل دلالات اللُّغة غير اللفظية إلى لغة لفظية لدى أبناء مجتمعنا الذي يجيد، إلى حد ما، تورية عاطفته أو لا يملك القدرة على التعبير عنها لأسباب تاريخية وثقافية ونفسية. لقد لاحظت مثلا أن الجزائريين يخاطبون بعضهم عبر البريد الإلكتروني بـ My Dear أو Ma chère إن كان الاتصال يتم بلغة أجنبية بين ذكر وأنثى لا تربطهم علاقة الدم، وإن لم يكن كذلك وكانت لغة التواصل عربية، فيستغنى عن عبارة عزيزتي، وتستبدل بالصديقة، ومن يتمسك بها يقوم بتعديلها بشكل طفيف لتصبح العزيز أو العزيزة دون أي نسبة. وهذا خوفا من التأويل في بيئة الاتصال الضمني.

6-تداعيات "الإيموجي" على اتصال الجزائريين.

ما فتئت مفردات "الإيموجي"، التي ظهرت في اليابان في 1999، تتزايد لتشكل أبجدية قوامها 1282 رسما. لقد استخدمت هذه الأبجدية لمنح بعدا إنسانيا للاتصال عبر مواقع الشبكات الاجتماعية، فتم تصنيعها وترميزها في أنظمة معالجة النصوص.²⁵ فأصبحت إحدى مكونات التواصل عبر الرسائل النصية القصيرة، والتوسيمات " الهاشتاغ" في موقع شبكة تويتر، وفي ادراجات "الفيسبوك" وفي مختلف تعليقات مواقع الشبكات الاجتماعية، بل امتدت لتشكل جزءا من المتن الثقافي في العديد من المجتمعات. وقد طرح تداولها العديد من الإشكاليات، تأتي في مقدمتها تلك المرتبطة بالعامل التقني. فبعض البحوث الميدانية²⁶ كشفت على أن بعض أيقونات هذه الابجدية تختلف من تطبيق تقني إلى آخر. فتلك التي يرسلها المرء بر الهاتف الذكي من صنع شركة آبل، والذي يعتمد على نظام الاستغلال iOS، ليست ذاتها التي يتلقاها شخص آخر، عبر هاتف يعتمد على نظام أندرويد،

ممّا قد يؤدي إلى سوء التفاهم. وبصرف النظر عن هذا العامل التقنيّ تختلف دلالات بعض الرسومات باختلاف الثقافات؟²⁷ فأيقونات الايموجي تشكل رهانا ثقافيًا كبيرًا باعتبارها حامل لسلطة ليّنة، وتستعملها كلّ أمة للدفاع عن تمثّلها الثقافي.²⁸ ويبدو هذا الرهان أكثر تعقيدا في المجتمع الجزائري الذي من المحتمل أن يتعامل مع أبجديات الايموجي وفق منطق الاتصال التضميني.

وغني عن القول إنه من الصعوبة بمكان التعبير عن الظواهر والأفكار المعقدة بأبجديات "لغة الايموجي"، وتزداد هذه الصعوبة في الجزائر لجملة من الأسباب التاريخية والثقافية الراهنة، نذكر منها ما يلي:

- نلاحظ أن الاتصال في البيئة الافتراضية في المجتمع الجزائري يدفع إلى بعث الاتصال الشفاهي على حساب الاتصال المكتوب. وهذا ما نلاحظه على سبيل المثال في خطابات الطلبة الذين يطلبون العون من الغير عبر موقع شبكة الفيسبوك. إنهم يطلبونه بلغة الذين لم يدخلوا المدرسة. فإن كان بعض الباحثين الأجانب يخشون على مستقبل الأطفال من استخدامهم الواسع للإيموجي على حساب اللغة المكتوبة، من باب السهولة والكسل، فهناك خشية من أن "الايموجيات" تفقر لغة اتصال الجزائريين. ربما البعض يحتج على فعل تفقر، فليلاحظ التراجع الرهيب في قدرة الجزائري على التعبير عن أحاسيسه ومشاعره، وليقارن بين قصيدة "حيزية" لبن قطيون" التي غناها الكثير من الفنانين، وقصيدة "جوزيفين" التي غناها رضا الطلايني. ونزعم أن الفقر اللساني قد يؤدي إلى استعمال العضلات في التعبير بدل الكلمات.

وقد تقودنا الملاحظة الأمبريقية في الصف الدراسي في الجامعة التي ندرس فيها إلى ظاهرة لا تكشف عن عجز اللسان فقط، بل تشير إلى احتمال تأثير الإيموجي على

تعبير الطلبة. فبعض الطلبة لا يعبرون بجملة ذات مبنى ومنعى، بل يَصِفُون الكلمة جنب الأخرى وكأنهم يصفون أبجديات الإيموجي.

• يمكن للبعض أن يلاحظ أن وسائط التواصل تعمل على توسيع الفجوة الرقمية داخل المجتمع الجزائري على أكثر من صعيد، فرغم تزايد عدد المشتركين في شبكة الانترنت لبلغ 26.35 مليون مشترك وأن 56.6 % من الجزائريين يستخدم الميديا الاجتماعية²⁹ إلا أن قطاعا كبيرا من الجزائريين يظلّ محروما من هذا الاستخدام لأسباب مادية أو للكفاءة القنيّة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يلاحظ أن هناك قطيعة عمرية في استخدام ترسانة الايموجات بين الشباب والمتقدمين في السن من مستخدمي مواقع الشبكات الاجتماعية. بالطبع إن هذه الملاحظة بحاجة إلى جهود باحثين في علم الاجتماع اللساني ليس لتشخيصها فحسب، بل للكشف عن تداعياتها في تشكيل " غيتوهات " داخل المجتمع.

• إضافة إلى ميلاد لغة ثالثة في الفضاء الافتراضي التي هي مزيج من الفرنسية والعربية والأمازيغية واللهجة العامية التي تكتب بالطريقة التي تتيحها مفاتيح الأداة التقنية: الهاتف الذكي، اللوح الإلكتروني، الكمبيوتر، يوجد اتجاه متزايد في التعبير بالصور أكثر من الكلمات بفضل بعض المواقع، مثل اليوتيوب، و" سنابشات " Snapchat التي يقول عنها صحافي نيويورك تايمز فرهاد منجو³⁰ Farhad Manjoo إنها جعلت الاتصال عاطفيا أكثر، وترفهيها أكثر، وبعيد عن التفكير الانعكاسي réflexif ولم يتم لحد الساعة قياس تداعيات هذا الاتجاه على الاتصال في المجتمع الجزائري الذي لازالت علاقته متوترة بالصورة.

7-الاتصال من أجل الانغلاق

يرمز طلب الصداقة في موقع الفيسبوك على سبيل المثال إلى التواصل. وشطب شخص من قائمة الأصدقاء وحذف منشوراته هو شكل من الفصل يتماهي تماما مع ما كان يمارس في القرى الصغيرة، حيث كان يقصى الشخص من المجتمع التقليدي ويهجر من قبل أعضائه إذا سلك سلوكا لا يرضي الجماعة أو نطق بما يغضبها. هذا مثال يكشف عن الحالة العادية لحالة التواصل والانفصال في مواقع الشبكات الاجتماعية، لكن توجد بعض الحالات الأكثر تعقيدا في الاتصال والتي تتطلب كفاءة سيمولوجية لإدراك دلالتها. فقد نرسل رسالة نصية لشخص ما رغبة منا للاقتراب منه أو بغية في الابتعاد عنه والهروب من مواجهته مباشرة وجها لوجها، ففي هذه الحالة يصبح التواصل ابتعادا. وقد بينت بعض البحوث الميدانية القليلة مع الأسف أنه يوجد من الجزائريين، خاصة من الإناث، من يرفع شعارا في صفحته في موقع الفيسبوك، أنه لا يقبل صداقة أي شخص سوى أصدقائه. وهذا يعني ممارسة الانغلاق في بيئة صممت من أجل الانفتاح، مما يؤدي إلى حالة من الانفصال في ظل التواصل. إنّ تلقي المزيد من المعلومات قد تساهم في عزل الأشخاص عن بعضهم البعض ليس بالمعنى المجازي، بل عمليا إن كان هؤلاء الأشخاص يتجنبون الأخبار والآراء التي لا تروق لهم أو لا تساهم ما هم مقنعون به، مما يعزّز ظاهرة " الأوموفيلي homophilie " التي يعرفها علم الاجتماع بأنه خطاب حتمي ينص على توجه المرء للاشتراك مع الأشخاص الذين يتقاسم معهم الأشكال التكاملية المرتبطة باللغة والجنس (ذكر، أنثى) والثقافة والعرق والمستوى الثقافي.

³¹ وترجم هذه الظاهرة عمليا بأن مشتركى مواقع الشبكات الاجتماعية لا يتصاحبون إلا مع من يشبهونهم، ولا يتابعون سوى منشورات الذين يقاسمون

معهم الأفكار ذاتها والقناعات عينها، ناهيك عن اللُّغة وربما المستوى الثقافي. وقد أدى هذا الأمر إلى نوع من الاستقطاب الذي يحاول أن يستوعب تشنر المستخدمين. ففي هذه الحالة يصبح الفضاء الافتراضي عبارة عن "غرفة الصدى" يسمع فيها المستخدمون صدى استقطابهم. وقد يترتب عن هذا الصدى غياب التفاوض حول مضمون الاتصال وتشكيل رأي تجاهه. وتتجلى التدعيات السوسيولوجيا لهذا النوع من الاتصال في تآكل اللحمة الثقافيّة التي تجمع أبناء المجتمع الواحد وتشكل قاسمهم المشترك.

بالطبع إن هذه الظاهرة لا تقتصر على المجتمع الجزائري، فلم تنج منها حتّى المجتمعات التي لا تنبذ الإخلاف في الرأي، وتشجع التعدّدية الإعلامية وحرية التعبير. هذا ما يؤكده التقرير الذي أعده مركز البحث المستقل في الولايات المتحدة الأمريكية (Pew Research Center, ³²) عن دراسته عن المجتمع الأمريكي. لقد بيّن أن مواقع الشبكات الاجتماعية، مثل تويتر، والفيسبوك تساهم في طمس التنوع في الرأي، وتتجنب الحوار حول القضايا ذات الصلة بالشأن العام.

إن رهان الاموفيلي في المجتمع الجزائري يختلف عن رهانه في الولايات المتحدة الأمريكية أو أي بلد في أوروبا على سبيل المثال، فوسائل الإعلام التقليدية ما انفكت تعمل على تعميق هذا الاستقطاب. فالصحف الصادرة باللغة الفرنسية عملت على تشكيل نخبة ذات ثقافة فرنسيّة، والصحافة العربيّة تعمل على تشكيل نخبة ذات مرجعية ثقافيّة عربيّة. وإن كان هذا التنوع الثقافي مفيداً على الصعيد النظري إلا أنه صار ضاراً ومكلفاً على الصعيد العملي لأنه لم يسع إلى مد جسور التعاون والتفاعل لتشكيل نخبة ثقافية واحدة في تنوعها، وفشل في إقامة الحوار المطلوب

نتيجة كثرة الاتهامات المتبادلة بالعمالة. والغريب أن هذا الواقع لم تعشه النخبة الجزائرية المتعلمة في مطلع القرن الماضي، والتي قال عنها المؤرخ الجزائري علي مراد³³ أنها تشكلت من فئتين: الشباب الحضري المفرنس الذي وُظف كعون إداري، أو في سلك التعليم والطب والقضاء والترجمة. وفئة النخبة المعربين من مدرسي، الكتّاب والأئمة والقضاة. ولم تكن الفئتان منفصلتين عن بعضهما، بل متعاونتان، وكان لهما الفضل في بروز صحافة الأهالي.

8-الاتصال والإكراه المزدوج:

نعتقد أن الاتصال عبر مواقع الشبكات الاجتماعية في الجزائر ينمو ويتطور ضمن منطق مفارقاتي. ويعرف أحد أبرز قادة مدرسة بالو ألتو، Gregory Bateson، المفارقة بأنها اتصال ذوي مستويين متناقضين.³⁴ وهذا يجعل الفرد يعيش فيما تسميه مدرسة بالو ألتو بالإكراه المزدوج Bouble Bind -، La double contrainte. وتتجلى هذه المفارقة على مستويين، المستوى الأول ذو بعد نظري. تعد مواقع الشبكات الاجتماعية مملكة النرجسية دون منازع؛ أي أنها تمنح للفرد منصة للتعبير عن إعجابه بذاته، وتوجيه نشاطه المرئي في هذا الاتجاه والنظر للغير انطلاقاً من اهتمامه بذاته، وقد عزّز الـ " Selfie " هذه النزعة، لكن استخدام مواقع الشبكات الاجتماعية يجرى في سياق هيمنة النزعة الجماعية. قد يعتقد البعض أن هذا الواقع لا يشكل مفارقة في العديد من المجتمعات الغربية. فيمكن للفرد الألماني، على سبيل المثال، أن ينفخ في ذاته الفردية ويشدّد على ما ينمي انتماءه لهويته الألمانية وحتى الأوروبية دون أن يقع في أي تناقض. وهذا الاعتقاد لا يجانب الصواب لأن هذا الفرد أو بالأحرى المواطن يشكل قوة مرجعية في الثقافة الغربية تتجلى على الصعيد اللساني والقانوني وفي السلوك السياسي. وهذا خلافاً للمجتمع

الجزائري الذي يكاد يصح القول فيه أن لا وجود للفرد إلا ضمن الجماعة. ولا يعتبر هذا الأمر حديثا ووليد الفكر الشعبوي الذي هيمن منذ 1962 فحسب، بل إنه وليد حقيقة انتربولوجية أيضا. فالباحث ناصر السوسي³⁵ يرى أن كلمة الفرد، ناهيك عن المواطنة، لا وجود لها في النصوص العربيّة على مدى عشرة قرون من تاريخ الفكر العربي والمغربي مقابل كلمة الرعيّة أو عامّة النّاس. ومن بين المسائل التي لها دلالة أن كلمة الرعيّة تستخدم بصيغة الجمع لأنه لا يوجد لها مفرد. قد يقول قائل إن غياب الكلمة لا يعني غياب الشيء الذي تدل عليه. لكن الفرد في الحضارة العربيّة الإسلامية لا وجود له سوى بانتمائه إلى عشيرته أو قبيلته أو منطقته سوى لدى الشعراء الصعاليك الذين انتفضوا ضد القبيلة، يعني ضد السّلطة التي انعزلوا عنها.

إن ثقافتنا الشعبية تلمس الفرد أو تعتقد بتمائل الجميع وتطابقهم. ألا يقال في الأمثال الشعبية، "كلنا أبناء تسعة أشهر" أو "افعل مثلما يفعل جارك أو بدل باب دارك التي أشار إليها السوسيولوجي الجزائري الطيب كنوش³⁶، الذي يرى أن الجزائري يخشى أن يبدو مختلفا عن "النحن"، لذا يقضى وقته في مراقبة ذاته ليشبه الآخر، النحن. إننا نهرب من ذاتنا لنجدها في الوجه الذي يفرض علينا لنختفي فيه. إنه أفضل قناع لصورتنا الخاصة.

إن الاتّصال المفارقاتي في هذه الحالة يتجلى في أن الفرد المشترك في مواقع التواصل الاجتماعي يسعى، في آن واحد، إلى الإفراط في تحسيس الغير بوجوده وبذاته من خلال إظهار كلّ ما يقوم به بما فيه حتّى أبسط الأشياء في الحياة اليوميّة من أجل انتزاع الاعتراف الذي تحدث عنه الفيلسوف ألكس هونيث Axel Honneth

، بل يسعى إلى مدح الذات وتقديمها في صورة مثالية تثير غيرة الآخرين وحسدهم لكن ضمن ما هو مقبول اجتماعيًا ليزوب في الجماعة وينصهر فيها بحيث يصبح " لا يرى نفسه إلا فيها ، ويشعر أنه " يتحقق " ذاته عبرها وأن مصالحه ومطامحه تمر عبرها.³⁷ " قد يجد البعض العديد من المبررات لهذا السلوك في المجتمع الجزائري كالقول مثلا أن التدافع بين الأشخاص من أجل الثراء وكسب الولاء وتحقيق الجاه وانتزاع الاعتراف³⁸ في مجتمع نقول عنه تجاوزا أنه يتجه بجنوح نحو نظام ليبرالي هجين يعد تربة خصبة لنمو "الرجسيات". وأن التوترات والتشنجات حول اللسان والمرجعية الثقافية والتاريخ والدين وحتى الطائفة الدينية إن لم تتحول إلى نزاعات في الواقع اليومي قد تجد امتداداتها في مواقع الشبكات الاجتماعية طارحة ضرورة اتخاذ موقف، وتحديد الانتماء. يمكن قبول كل هذه التبريرات التي تؤكد في الواقع وجود اتصال مفارقاتي في المجتمع الجزائري يتجلى بشكل أوضح في مواقع الشبكات الاجتماعية ليترجم العجز عن التوفيق وإحداث التناغم بين هويتين: الهوية الشخصية، والهوية الجماعية.

أما المستوى الثاني، فيأخذ بعدا عمليا. نلاحظ أن الكثير من الجزائريين يدعون الله في صلواتهم وخارجها أن يسترهم فوق الأرض ويوم العرض، وبالمقابل يسعون بشكل واع أو دونه إلى الكشف عن ممارستهم بما فيها ذات الطابع الخصوصي، بمعنى آخر، إنهم يتواصلون ضمن الاكراه المزدوج: السعي إلى الستر والرغبة فيه من جهة، والبوح والنشر من أجل إثارة الغيرة والتفاخر، والانتقام ... من جهة أخرى. قد يقول قائلًا، وهو لا يجانب الصواب، إنها تحولات المجتمع. لقد كان الآباء يغطون مشترياتهم من فواكه ولحوم بمنشفة عند عودتهم من السوق خوفا من الحسد ، وتجنبا لاستفزاز الجيران الفقراء والمعوزين. أما اليوم، فالناس

أصبحت تصور موائدها المزدحمة بما لذ وطاب، وتعرض مشترياتهم في مواقع الشبكات الاجتماعية. إنها معضلة الاتصال في مجتمعنا : كيف نوفق بين السתר في عصر استبداد المرؤئية؟ كيف نخفي في عصر الشفافية؟ أسئلة تقودنا إلى المحور الموالي في الاتصال. لكن قبل ذلك لابد من التساؤل هل أن تفكيك أسرار ممارسة الاتصال في ظل الإكراه المزدوج تتطلب الاستعانة بالعدّة المفاهيم التي نحتها الباحث الفرنسي "ميشال دو سيرتو" في نظريته " للمجتمع كحقل للصراع"³⁹ ، بمعنى ماهي "التكتيكات" التي يستعملها الجزائري للانفلات من هيمنة القوانين والأعراف الاجتماعية القاهرة، أو كيف يلتزم بها بطريقة شكلية أو بمرونة في ظل السياق الاجتماعي للاتصال؟

9-مواقع التواصل الاجتماعي وخصوصية الجزائري

نزعم بأن المواضيع والأشياء والسلوكات التي تشكل خصوصية المرء لا تحظ بالإجماع في كل مجتمع. فما ينتهي إلى الحياة الخاصة في هذا المجتمع أو تلك الثقافة ليس كذلك في ثقافة أخرى، وما كان يندرج في خانة الخصوصية في هذا المجتمع في مرحلة تاريخية معينة لم يعد كذلك اليوم. قد يقول البعض أن التواصل في البيئة الافتراضية يتدخل بنشاط في تضيق دائرة الخصوصية. لقد كان الجزائري يخجل من ذكر اسم زوجته أو أمه أمام الغير قبل سنوات، أما اليوم فالمرء فلم يعد يشعر بأي حرج وهو يتحدث عبر الهاتف بصوت مسموع عن أموره الشخصية والعائلية على مسمع ركاب وسائل النقل العمومي، وفي الأماكن العامة. قد يقول قائل أن المثال المذكور أعلاه يجلب الماء إلى وجهة نظر الباحثة، هيلان نيسبوم⁴⁰ المتعلقة بمفهوم الخصوصية Privacy المغاير لما ألفناه حيث ترى أن الخطر لا

يكمن في كثافة البيانات عن الحياة الخاصة التي تنشر عبر الوساطة التقنية، ولا في عجز المرء عن السيطرة عليها، بل في سياق نشرها أو بثها، بمعنى أن مشكل الحياة الخاصة يطرح إن كان مستخدم الوساطة التقنية يعرف المتصل، ويمكن أن يستعملها ضده أو له مصلحة في الحصول عليها.

وقد يرى البعض أن الحياة الخاصة تشكل مفارقة في المنصات الرقمية، أو أنها عبارة عن حلقة مفرغة لا يمكن الخروج منها. " فكلما زادت مشاركتنا للغير في المنصات الرقمية جعلنا حياتنا الخاصة أكثر عرضة للملأ، وكلما زاد هذا العرض ارتفع منسوب الخوف على حياتنا الشخصية. إننا نمارس حياة اجتماعية في هذه المنصات، ومن الوهم التام أن نكون قادرين على أن نعيش حياة خاصة فيها .⁴¹ وهذا ما يمنح الحجة الإضافية للفيلسوف الفرنسي، "رجيست دوبري" لوصف العصر الحالي بـ "الزمن البروتستانتي الجديد" انطلاقاً من أن البروتستانتي الجيد ليس لديه ما يخفيه، وإنما «الأشخاص الذين لديهم أشياء تشينهم يقلقون على بياناتهم الشخصية»⁴²

السؤال الذي يمكن طرحه عن الحياة الخاصة عبر الوساطة الرقمية في المجتمع الجزائري هو كالتالي: ألا تعمل السوق، على الرغم من ضعفها، على تدمير البعض مما رسخته التقاليد والعادات عن الحياة الخاصة؟ إن مبرر طرح هذا السؤال استنتاجه من الملاحظات التالية: توجد الكثير من الفتيات والنساء الجزائريات المحجبات اللواتي أنشأن قنوات مرئية في موقع اليوتيوب أو فتحن صفحات لهن في موقعي الفيسبوك وانستغرام وخصصنها للطبخ والخياطة. فلا تظهرن سوى أيديهن في الفيديوها التي تنشرهن، لكن عدد متابعاتهن والمعجبات بهن كان قليلاً، فبدأن باستعراض بعض التفاصيل عن حياتهن الخاصة إلى درجة

تصوير غرفة نومهن، والملابس الداخلية اللواتي اشترتهن أو كلفتهن المؤسسات التجارية بالإشهار لها! فازداد عدد المعجبات بهن!

10- المجتمع الجزائري واخفاق إيديولوجيا الاتصال

يقول مدير صحيفة لوموند السابق "أنسيو روموني"، عن الاتصال ما يلي:
"أصبح التواصل تدريجياً أحد براديفمات عصرنا، ليحل بصمت محل براديفم التقدم. فلم يعد، من الآن فصاعداً، التقدم (الذي ينتقده الجميع) كقوة تعمل من أجل إحلال السلم في مجتمعاتنا، وتخمر التماسك الاجتماعي، بل الاتصال الذي جعل مهمته تهدئة العلاقات الاجتماعية واستبعاد العنف. وعلى هذا النحو، يمكن اعتبار الاتصال بمثابة مادة تشحيم اجتماعية "حيث لا تعد الرسالة التي يريد المرء إيصالها هي المهمة بل عملية الاتصال في حد ذاتها"⁴³.

تختزل هذه الفقرة أيديولوجيا الاتصال التي آمنت بها السلطات الجزائرية . فرفعت من عدد المحطات الإذاعية لتبلغ 52 محطة وزادت في عدد القنوات التلفزيونية المتخصصة لتصل إلى عشر قنوات: قناة الذاكرة، قناة المعرفة، قناة القرآن الكريم، قناة الأطفال، قناة البرلمان، قناة الشباب، القناة الأمازيغية. لكن كل هذا العدد من الوسائط لم يفلح في إقامة حوار اجتماعي. حقيقة لقد سمحت هذه المنابر بتوسيع النقاش لكنها لم تتمكن، مع الأسف، من تحويله إلى حوار اجتماعي. والاختلاف بين المفهومين واضح، فالمناقشة تستند إلى الحق في الاتصال والتعبير بينما يركز الحوار على حق المرء في أن يُسمع؛ أي يكون مسموعاً، ويؤخذ رأيه بعين الاعتبار. والنتيجة لم تتمكن كل هذه القنوات في امتصاص العنف الذي

انتشر في الشارع، والملاعب، والمدارس، والجامعات، وحتى في المساجد. وهذا ما يبرّر طرح السؤال التالي: هل تحول العنف إلى وسيلة اتصال؟

تعتقد السلطات العمومية أن أكبر خطر يهدّد الاتصال في الجزائر يأتي من مواقع الشبكات الاجتماعية، لكونها تشكل وكراً للإشاعات المغرضة، والأخبار المزيفة أو المفبركة، وتشجع التطرف والكراهية، وهذا الرأي لا يجانب الصواب وتشتكي منه الكثير من الدول والمنظمات الدولية. لكن ما يقلق هذه السلطة أكثر يكمن في عجزها عن بسط يدها على هذه الشبكات. لذا لجأت إلى التشريع القانوني والملاحقة القانونية للنشطاء في شبكة الانترنت.

يبدولي أن ما يقلق أكثر في الاتصال عبر مواقع الشبكات الاجتماعية في الجزائر هو تمثل الجزائريين لها. إذ أن الكثير منهم يتعامل معها وكأنها وسائل إعلام كلاسيكية، ويميل إلى تصديق ما تنشره أو تذيّعه، بما فيها الأخبار المزيفة. لا يمكن تفسير هذا الميل بقلّة الكفاءة التقنية وفقرها والعجز عن التحري عن صحة المعلومات المتداولة في هذه المواقع فحسب، بل توجد العديد من الأسباب التي يمكن أن تساعدنا في هذا التفسير، منها ما هو متعلق بتاريخ نشوء المنظومة الإعلامية الوطنية وتطورها، ومنها ما هو متعلق بالعوامل السياسية.

من الوهم أن نعتقد أن تاريخ "الأخبار المزيفة" بدأ مع الانتخابات الأمريكية التي وصل بموجها دولاند تروب إلى البيت الأبيض الأمريكي، ولا بالتأثير القوي للروس على هذه الانتخابات، ولا وقصة "كمبرج أناليتيكا" *Cambridge Analytica*، وذلك لأن هذه الأخبار ليست سوى الجزء الناتئ من جبل الجليد الذي نسميه تضليلا، أو تحريفا إعلاميا. فوسائل الإعلام الأمريكية الكبرى تذكرنا بأن أضخم خبر مزيف نشرته هو "امتلاك نظام صدام حسين" للأسلحة النووية، وتورطه مع القاعدة في

أحداث 11 سبتمبر. أما وسائل الإعلام الجزائرية الرسمية التي احتكرت الأخبار لعقود عدة، فقد كانت تنقل ما يصلها من أخبار من السلطة التنفيذية دون محصها والتدقيق فيها. لقد أكدت مرارا وتكرارا بأن لا خوف على الجزائر من الأزمة الاقتصادية العالمية في 2008؟ ثم تشير في 2014 إلى وجود صعوبات جدية في دفع رواتب العمال والموظفين، ولجؤها إلى طبع الأوراق النقدية مع التأكيد على أنها لا تؤثر قط على نسبة التضخم في الجزائر، وهذا يتنافى ومنطق الاقتصاد. لقد دأبت وسائل الإعلام الرسمية على نشر الأخبار استنادا إلى مصدر واحد ووحيد، ودون أي مصدر في بعض الأحيان. لقد نتج عن هذه الممارسات الاتصالية أنها خفضت من منسوب الثقة في وسائل الإعلام الرسمية، علاوة عن كونها لم تقدم للجزائري ما يعزّز قدرته على التأكد من صحة الأخبار، فأصبح يصدق بسهولة ما ينشر في مواقع الشبكات الاجتماعية دون الالتفاتة إلى المصدر، ولا يميّز بين الوقائع والتعليق عليها. لقد شبَّ على اعتبار الآراء ووجهات النظر وقائع بصرف النظر عن ناقلها: وسائل الإعلام التقليدية أو مواقع الشبكات الاجتماعية.

عندما تنغلق وسائل الإعلام الرسمية على الرأي الواحد المهيمن. وتقصى كل الذين يملكون رأيا مغايرا أو مختلف، فإنها لا تمنح لهم سوى التوجه إلى مواقع الشبكات الاجتماعية ليعبروا فيها عن وجهة نظرهم، وإن لم تُسمع فيعبرون عنها بنوع من التطرف.

لا يجب أن يفهم من هذا القول أي تبرير للممارسات الاتصالية في الجزائر عبر الوسائط المختلفة التي تجنح نحو العنف اللفظي، والتضليل والكذب، وزرع الكراهية بين أبناء الشعب الواحد. إنه ليس أكثر من توصيف لسياق الاتصال

ومدخل لطرح السؤال التالي: أليست هذه الممارسات ضريبة انتقال " الديمقراطية الاستعراضية في الجزائر إلى ديمقراطية الفقاعات؟⁴⁴

المراجع

- ¹ - جون مارك فيري، فلسفة التواصل، ترجمة وتقديم عمر مهيبيل، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، 2006، ص 9
- ² - نصر الدين لعباسي: مناهج البحث في السياق الرقمي: خلاف واختلاف، مجلة لباب، مايو- أيار- 2022، ص 12- 63
- ³ -- Jean-Pierre Olivier de Sardan : De l'amalgame entre analyse-système, recherche participative et recherche-action, et de quelques problèmes autour de chacun de ces termes , in Sebillotte M. (ed.), *Recherches-système en agriculture et développement rural : conférences et débats* Montpellier : CIRAD-SAR, 1996, p. 129-140 – Consulté le 2 juin 2022. <https://www.documentation.ird.fr/hor/fdi:010009948>
- ⁴ - David M Ryfe: A practice approach to the study of news production , Journalism, Vol 19- Issue 2- 2018 p 1–17. Accessed June 2, 2020. DOI: 10.1177/1464884917699854
- ⁵ - Deuze .M... *Media life. Media. Culture & Society* ,33(1)2011 . Consulté le 12 mai 2022 doi:10.1177/0163443710386518
- ⁶ - Lionel Bellenger -Marie -Josée Couchaere : Les techniques de questionnement Tout sur l'art de questionner, ESF Sciences humaines, 2018, p9
- ⁷ - Robert T. Craig Construire des théories dans la recherche en communication in Peter J. Schulz and Paul Cobley: Theories and Models of Communication, 2013 Walter de Gruyter GmbH, Berlin/Boston, P 41
- ⁸ - أنظر على سبيل المثال " برجى" وكلايراس "اللذان حاولا دراسة الاتصال بين شخصين في بداية العملية استنادا إلى النظرية الرياضية للتأكيد على تقليص عدم التيقن كمؤشر قوي في نجاح عملية الاتصال.
- Berger, C. R. & R. J. Calabrese.. Some exploration in initial interaction and beyond: Toward a developmental theory of communication. *Human Communication Research* 1. 1975. Pp 99–112. Consulté le 25 mai 2022. doi:10.1111/j.1468–2958.1975.tb00258.x
- ⁹ - Carey, James W. 2009. *Communication as Culture: Essays on Media And Society*. Revised edn. New York and London: Routledge , p 9
- ¹⁰ - Cité par Bruno OLLIVIER Communication et médiations à l'ère numérique- Santiago du Chili, Universidad de Chile- 2016 ,p 12

¹¹ - Héloïse Lhéreté: Internet : après l'utopie in Jean-François Dortier : La communication, Des relations interpersonnelles aux réseaux sociaux, Éditions Sciences Humaines, 2016, p 313

¹² - ولتن دومنيك. (2012). الإعلام ليس اتصالاً، دار الفارابي، لبنان ، ص23

¹³ - Wolton Dominique (Juin , 1999) *Les fausses promesses de la société internet , sortir de la communication médiatisée* . Le monde diplomatique, p29

¹⁴ - Michel Serres : bienvenue à l'homme nouveau, interview réalisée par Élisabeth Lévy, le point, du 14/06/2012

¹⁵ - Georges Fanny (2009) :Représentation de soi et identité numérique Une approche sémiotique et quantitative de l'emprise culturelle du web 2.0, Reseaux, 2- n 154, pp 165-193

¹⁶ - عبد السلام بن عبد العالي: مثنولوجيا الواقع، دار توبقال للنشر ، المغرب، 1999 ، ص 8
¹⁷ - هشام شرابي : الجمر والجماد، مذكرات مثقف عربي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى 1978، ص 128-129

¹⁸ - بقال أحمر القوم، أي أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث والكلام- أنظر:

<https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%A3%D8%AD%D9%85%D8%B6>

¹⁹ - محمد عابد الجابري، حفريات في الذاكرة، من بعيد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1997، ص 68

²⁰ - جينيفر كافاناغ - مايكل دي رتش: بحث أولي حول تضال دور الحقائق والتحليل في الحياة العامة الأمريكية -مؤسسة RAND – 2018، ص 11

²¹ - Cité par Michaël Oustinoff : De la démocratie en Amérique » et l'intraduisibilité de l'anglais , Hermès, La Revue 1 - n° 56, 2010. pp 71 à 76

²² - حدّد المسافة الأولى بأقل من 40 سنتم، والثانية بما بين 45 و 120 سنتمتر ، والثالثة من 120 و 360 سنتم ، والثالثة أبعد من 360 سنتم، أنظر:

Edward T. Hall: La Dimension cachée ,trad. de l'anglais par Amélie Petita, Paris, 1 ere édition ; Points ; 1971 ; p 143-160

²³ - Ingrid Tedeschi; Paulina Koswozka-Nowkozka , Franck Renucci (2010): Communication interpersonnelle à l'ère du Web2.0 questions de l'interaction et de l'interactivité Consulté le 20janvier 2022.
http://culture.numerique.free.fr/publications/ludo10/tedeschi_nowakowska_renucci_ludovia_2010.pdf

24- سنل الممثل العالمي عمر شريف في حوار تلفزيوني بثته قناة العربية عن الفرق بين جمهوره العربي والغربي. فقد لدي الكثير من المعجبين في مختلف الدول التي عشتها فيها أو زرتها بمناسبة مشاركتي في تصوير أفلامي أو في المهرجانات السنيمائية. ولاحظت أن الجمهور الغربي يعترض طريقي ليطلب مني بـكُلّ أدب أن أخطئه بعض الكلمات أو أوقع له Autographe. بينما يقترب مني جمهوري في دار البيضاء المغربية كثيرا، ولا يريد مني أتوغرافا، بل يريد أن يسكنني من يدي أن يحسني أو يحتضنني.

25 - Julia Bélouis. Les emoji, une pratique textuelle ordinaire ? : étude des mutations d'un objet trivial en tension entre pratique et encadrement. Magister professionnel- Sciences de l'information et de la communication. CELSA- Paris Sorbonne, 2017

26 - أنظر على سبيل المثال:

Claudia Farini et Stella Achieng :UNE APPROCHE INTERCULTURELLE DES ÉMOJIS : FRANCE, ITALIE, ARABIE SAOUDITE Éric Navé, - COMMposite, 22(1), 2021 Consulté le 14 Mai 2022. <https://www.researchgate.net/publication/356412172>

27- يمكن أن نذكر على سبيل المثال أن صورة الأيدي المبسوطة في الايموجي التي تعني مرحبا أو Coucou باللغة الفرنسية و Hello ، بالانجليزية تعني أنك مرفوض في اللغة الصينية، وصورة السبابة والأصبع الصغير تعني " عيش موسيقى الروك ند رود" وتعني أيضا أنك دايوث.

Elodie Emery: Les émojis à l'assaut de nos cerveaux, L'express du 25/06/2018. Consulté le 15/02/ 2022 .https://www.lexpress.fr/actualite/societe/les-emojis-a-l-assaut-de-la-planete_2019007.html

28 - Julia Bélouis, op cité

29 - Simon Kemp : DIGITAL 2022: ALGERIA, February 2022. Consulté le 15 février 2022, <https://datareportal.com/reports/digital-2022-algeria?rq=Algeria>

30- نقلا عن المصدر ذاته

31 - Casilli Antonio) 2010(: "Le web ne désocialise pas plus qu'il n'hypersocialise, mais il reconfigure notre manière de faire société. Consulté le 20 mars 2022. <http://www.internetactu.net/2010/09/08/antonio-casilli-le-web-ne->

desocialise-pas-plus-qu'il-n'hypersocialise-mais-il-reconfigure-notre-maniere-de-faire-societe/

³² - Pew Research Center (2014) : Political Polarization in the American Public, Consulté le 12 Juin, 2022 <http://www.people-press.org/2014/06/12/political-polarization-in-the-american-public>

³³ - Ali Mérad, «La Formation de la presse musulmane en Algérie 1919-1939,» Revue de l'Institut (1) des Belles lettres arabes à Tunis, vol. 27 (1964), p. 9

- ³⁴ نقلا عن:

Gouillou Philippe (2012): Systémique, Paradoxes et Palo Alto, consulté le 9/02/2017 .<http://neuromonaco.com/lettres/lettre22.htm>

- ³⁵ السوسي ناصر (2008): الفرد - المواطن أساس المجتمع الديمقراطي الحديث، منظور سوسيو فلسفي، صحيفة الاتحاد الاشتراكي 5 فبراير

³⁶ - Kennouche Tayeb: Un plaidoyer pour le «je», journal el watan du 17.mars 2007

- ³⁷ عبد السلام بنعبد العالي: منطق الحل، دار توبقال للنشر، 2007، ص 39

³⁸ - تذكرني بعض المناوشات والشجار الذي يقع في موقع الفيسبوك بين الجزائريين برواية "دوستوفسكي: ذكريات في منزل الأموات والتي تذكر حالة نفسية غريبة لدى السجناء أثناء مكوثهم معهم أثناء فترة سجنه. لقد لاحظ أن بعض السجناء يفتعلون الشجار عمداً، ليس لنزع عتهم العدائية أو الشريرة أو أن الموضوع يستدعي شجاراً بل ينتشجرون لما ينتج عن الشجار، حيث يقوم الكثيرون من الأشخاص بمحاولة تهدئتهم والحديث معهم وملاطفتهم ولو بكلمة لينهوا المشاجرة. ففي تلك اللحظات يجد هؤلاء الأشخاص قيمة لذواتهم، وكلمة ترفع من قدرهم فيكون لذلك بالغ الأثر على نفوسهم.

³⁹ - أنظر قراءة الفيلسوف الجزائري محمد شوقي الزين لهذه الترسانة في دراسته التي تحمل العنوان ذاته الصادرة في مجلة نزوى العمانية، عدد 74 - أبريل 2013

⁴⁰ - Helen Nissenbaum : Privacy in context ,Technology, Policy, and the Integrity of Social Life, Stanford University Press, 2010, p 108

⁴¹ - Jean Mark Manach : Facebook et le « paradoxe de la vie privée », 25 septembre 2012, Consulté le 1 juin 2022.
<http://bugbrother.blog.lemonde.fr/2012/09/25/facebook-et-le-paradoxe-de-la-vie-privee/>

⁴² - أنظر القراءة التي قدمها محمد تركي الربيعو، لكتاب رجيست دوبري: السلطة الجديدة، ترجمة مصطفى القلعي، القدس العربي، 18-06-2022

⁴³ - Ignacio Ramonet *la Tyrannie de la communication et Propagandes silencieuses*, Galilée, Paris, 2002, p5

⁴⁴ - يرى دامنيو أن المجتمعات الديمقراطية تعيش نهاية "الديمقراطية الاستعراضية" وبداية بروز "ديمقراطية الفقاعات". ويشرح الديمقراطية الأولى بأنها تستغنى عن أدوات التعبئة والتجنيد التي اعتمدت عليها الأحزاب السياسية التقليدية: منشورات حزبية، ولقاءات مع المناضلين والأنصار، وتنتج إلى الجمهور الذي تتعطى معه كأنه جمهور المسرح الذي تقدم له ما يثير موافقته واستحسانه ويعبر عنها بالتصفيق. أما الديمقراطية الثانية فإنها مرتبطة

بمواقع الشبكات الاجتماعية التي قامت بتفتيت الجمهور، لتشكّل العديد من الفقاعات ذات المرجعيات الذاتية والتي تشكل اقطاب في فضاء اتصال وإعلامي. أنظر:

Damiano Palano: The truth in a bubble, the end of “audience democracy” and the rise of “ Bubble Democracy ,Soft Power , Vol 6, N° 2, julio-diciembre, 2019, p 36-53 Consulté le 15 fevrier 2022.
<http://dx.doi.org/10.14718/SoftPower.2019.6.2.3>

ونقدر من جهتنا أن هناك نوعا من الترابط بين " الديمقراطيةيتين "في الجزائر على الرغم من عدم وجود بحوث أمبريقية تؤكد ذلك. فالقنوات التلفزيونية التي أنشأها الرئيس المخلوع بوتفليقة، حملته الانتخابية لعهد رابعة حاولت تجسيد الديمقراطية الاستعراضية، لكننا نلاحظ اليوم ارتباطها بديمقراطيات الفقاعات، بمعنى أن الفقاعات التي أوجدتها مواقع الشبكات الاجتماعية تتغذى مما تنتشره هذه القنوات التلفزيونية، وتتغذى هذه الأخيرة مما تتداوله بعض الفقاعات، خاصة تلك " المصطنعة".